هذه الدولة الجديدة « مملكة الحجاز ونجد وملحقاتها » ، وهو اسم يدلّ بطوله على ان الدولة مؤلفة خصوصاً من قُطرين مختلفين هما نجد والحجاز التاريخيان . ولا يرقى نشوء هذه الدولة الى ابعد من الحرب الكونية التي جرّت كثيرًا من الانقلابات السياسية والجغرافية .

كان الحسين بن علي ، الذي فاجأتنا بنعيه اخبار تُسرّع في ارسالها ولم تلبث ان كُذّبت ، شريفاً في مكة في اوائل الحرب . وهو لقب لا سلطة فعليّة لحامله ، لان النقض والابرام كانا بيد والي الحجاز العثماني . إلّا ان الحسين استفاد من اضطراب النظام العسكري التركي ، ومن تضعضع الاتراك على اثر دخولهم الحرب ضدّ الحلفاء ، فاعلن استقلاله في ٣٠ ايار ١٩١٦ . ومنذ ذاك الحين بدأت حياة تلك المملكة التي دُعيت « مملكة الحجاز » والتي كانت ، في رغبة الحسين ، سوف تمتدّ الى ابعد من حدود الحجاز . لانه ، باتخاذه لقب « ملك العرب » ، كان يرمي الى انْ يضمّ تحت سلطته ، عاجلًا او آجلًا ، كل انحاء الجزيرة العربية ، فضلًا عن سورية والعراق . ولكن تلك الرغبة الجميلة لم تتحقّق ، فلم يعترف الحلفاء بلقبه ذاك ، ولا أقرّ امراء العرب بتلك السيطرة المزعومة ، وهم شديدو التمسّك باستقلالهم الذاتي . اما ملك الحجاز فلم يُقلع عن فكرته بل جارى طمعه مجاراة كانت وخيمة العاقبة عليه ، اذ شهر الحرب على ابن سعود ، امير الرياض ، لانه لم يعترف بسلطته . فكانت

النتيجة ان الجيش الحجازي كُسر شرّ كسرة ، فانهزم امام العساكر النجدية التي دخلت مكة في ١٣ تشرين الاول ١٩٢٤ . فتنازل الحسين عن عرش الحجاز لابنه علي ، الذي لجأ الى جدّة ، وقاوم فيها حتى ١٨ كانون الاول ١٩٢٥ . عند ذاك الحق ابن سعود الحجاز موقتاً بامارة نجد ، على ان يجتمع ممثلو العالم الاسلامي في مؤتمر عام يقرّر مصير تلك البلاد .

وفي الحقيقة لم ينتظر ابن سعود قرار ذاك المؤتمر ، بل انه ، بعد ان اتخذ لقب « سلطان نجد » ، نادى بنفسه ملكاً على الحجاز في ٩ كانون الثاني ١٩٢٦ . وفي ٣١ آب من السنة نفسها اعلن دستوراً للحجاز كمّله بقانون صادر في ٢٦ حزيران ١٩٢٨ ، ومآله ان الملك يدير بنفسه الشؤون الدينية والعسكرية والسياسية . ويمثله في مكة وسائر الحجاز الامير فيصل ، ثاني اولاده ، حاملاً لقب « نائب عام » ، فيدير الشؤون الداخلية والمالية ، والمعارف العامة ، وينظم الحجّ وما اليه . يعاونه في كل ذلك مجلس شورى مؤلف من احد عشر عضواً معيّنين جميعهم بقرار من الملك . وقد كان المجلس الاول منتخباً ، ولكن سرعان ما حلّه ابن سعود ، لأنه لم يظهر الموافقة التامة على رغبات الحكومة الوهّابية .

ومن المعلوم انه ليس في الحجاز الّا بلدة واحدة تفتح ابوابها لغير المسلمين ، وهي جدّة . ولهذا نرى فيها جميع القناصل وممثلي الدول لدى ابن سعود ، فيقيمون في تلك المدينة ، ولا يتجاوزون حدودها . وفيها اليوم ممثلو انكلترة ، والعجم ، وفرنسة ، وهولندة ، وروسية ، وتركية ، وايطالية . وقد عقد ابن سعود مع انكلترة معاهدتين اولاهما في بحرة ، في ٣ تشرين الثاني ١٩٢٥ ، والثانية في جدّة في ٢٠ ايار ١٩٢٧ ، فالغتا جميع الاتفاقات السابقة المعقودة بين انكلترة والشريف الحسين بن علي .

ويتولّى ادارة مكة والمدينة وجدّة قائمقام يعاونهم مجالس ادارية يعيّن الملك اعضاءها . فيظهر ان ليس في الحجاز هيئة واحدة ناتجة عن الانتخاب الشعبي . اما من حيث المذاهب الدينية فان اكثرية اهل الحجاز الساحقة تنتمي الى المذهب الشافعي ، والاقلية منقسمة بين المذاهب الثلاثة الباقية . وهناك في

بعض القرى ، كما في نواحي المدينة ، قليل من الشيعيين . وهمّ ابن سعود السعي الحثيث في التخلص من هذه الاقلية الضئيلة ، وفي ضمّ اتباع المذاهب الثلاثة ، الشافعي والحنفي والمالكي ، الى مذهب ابن حنبل وهو مذهب الوهّابيين .

اما المعارف فضئيلة والتعليم قليل الانتشار . وقد أُنشئ ، في مكة ، في ١١ نيسان ١٩٢٧ مدرسة دُعيت « بالمعهد السعودي » . على اننا لا يمكننا ذكر شيء عن مناهجها وحركتها العلمية لافتقارنا الى المعلومات . ويمكننا القول نفسه عن الصحافة ، ولا يمثلها في الحجاز الّا جريدة « أمّ القرى » الرسمية ، ومجلة « الاصلاح » وهي نصف شهرية تنشر مقالات قليلة الاهمية تظهر على وتيرة واحدة . وقد كان في مكة جريدة اخرى تُدعى « القبلة » ، وفي جدة جريدة ايضاً تُدعى « البريد الحجازي » ، ولكنهما ماتتا بسقوط الدولة الشريفية سنة ١٩٢٥ .

* * *

تقلّ بلاد نجد عن الحجاز تأثيراً دينيّاً ، ولكنها تفوقه مساحةً ، وعدد سكّان ، وغنى في المحصولات . فان الحجاز لا يعيش الّا باستثمار موسم الحجيج واستغلال الحجّاج . اما نجد فعليه معتمد ابن سعود ، وهو وطن أسرته ، فيقدّم له مادّة جيوشه التي بولغ في عددها فأوصلت الى ٨٠,٠٠٠ مقاتل . كما بولغ في عدد سكّان نجد وملحقاته اي الاحسا ، والجوف ، والعسير ، فقدّرته الحكومة رسميّاً بعدد ١,٦٥٠,٠٠٠ ساكن .

لما كان عبد العزيز بن سعود في الخامسة عشرة من سنيه ، لم يكن في يده شيء من مقاطعات امارته الموروثة ، لان ابن الرشيد ، امير شمّر ، كان قد انتزعها كلّها ، والجأ الامير الشاب الى ان يعيش منفيّاً في الكويت . ولكن لم تطل المدّة على هذا الشاب حتى اخذ بالسعي في استرجاع املاكه ، فاستعاد اولًا النجد الجنوبي ، وهو مقاطعة آبائه واجداده . ثم اتت الحرب العامة فاعلن معاداته للاتراك الذين كانوا يتصرون لابن الرشيد . ودامت المنازعات طويلًا بين الاميرين ، حتى انتهت بفوز ابن سعود ، فاحتلّ بلاد شمر او النجد الشمالي . ثم اضاف اليها واحات الجوف — وهي دومة الجندل المذكورة في الشعر القديم —

ثم بلاد الحجاز سنة ١٩٢٥ ، كما فصّلنا ؛ واخيرًا ناحية العسير او امارة أبها ، وهو يشتغل ، في ايامنا ، بنشر نفوذه في بلاد اليمن ، وبسط سيادته على امامها الزيدي .

ويمكن القول ان ابن سعود كان ، قبل السنة ١٩٢٧ ، ملكاً مطلقاً في بلاد نجد . اما اليوم فقد يظهر ثملًا بخمرة الظفر حتى الغرور ؛ لانه ، على الرغم من مقدرته السياسية والادارية ، لم يحذر الحذر الكافي من تقلقل البدو الفطري وتذمرهم الطبيعي من كل ادارة نظامية . فظنّ انه بامكانه ان يطفر الطفرات ويقتضب المراحل والمسافات في نقل رعاياه من محيطهم ، الذي لا يكاد يفرق اليوم في شيء عما كان عليه في الجاهلية زمن عنترة وحاتم طي ، الى محيط التقدم ، ومجال الرقي الحاضر . سها باله عن كل هـذا ، فنال ثمرة غفلته ؛ اذ اتّهمه الوجيهون ، وكثيرٌ ما هم ، بالميل الى الروح العصري ، فقاموا ينمون عليه تجديداته واصلاحاته حتى اجبروه على الامتثال امامهم في مؤتمر الرياض (نيسان ١٩٢٧) ، ليشرح لهم سبب تلك التجديدات ، ويسمع منهم ما لا يرضيه من الملاحظات .

هنـاك سمع تصريح العلماء الوهّابيين بانهم لا يعرفون حقيقـة التلفراف والتلفون ، وأنهم لم يروا شيئاً عن هذه الامور في تأليف الأئمـة الاقدمين من السلف الصالح ، وأنهم ، الى ان يقفوا على شيء في ذلك ، لا يمكنهم شجب هذه المجدّدات ، ولكن لا يمكنهم السماح بها . وفضلًا عن ذلك ، فانهم طالبوا بالغاء الضرائب التي لا تنصّ عليها الشريعة ، وبالغاء القوانين التي اصدرتها السلطة المدنية . وانتهوا بان طلبوا ارغام الشيعيين على الرجوع عن « اضاليلهم الوثنية » (كذا !) .

ولا حاجة الى التعليق على هـذه التصريحات ، فانها واضحة تدلّ الدلالة الكافية على استعـدادات القائمين بذاك المؤتمر ، الـذين تخوّفوا من التلفراف والتلفون وما شاكلهما متوجّسين فيها تدخلات شيطانية ، وما ذاك الّا لأنه لم يرد لها ذكر في مسند الامام احمد بن حنبل ، ولا في تآليف ابن تيميّة ، وابن قيم الجوزيّة ومن اليهما من فطاحل العلوم الوهّابية . على ان المهمّ في الامر هو

ان وجود هؤلاء الرجعيين خطر دائم على سياسة ابن سعود ، بل تهديد مستمر يترقب كل ما يحدثه. وقد افهموه ، بطريقة ضمنية ، انه يجب عليه في المستقبل ان يستشير علماء الوهابيين ، كما انه يحسن صنعاً ان بدأ باضطهاد الشيعيين القلائل في مملكته . ثم تقدمت الحركة الرجعية فخطا ارباباها خطوة واسعة الى الامام ، فدفعوا ابن سعود ، في شهر تموز ١٩٢٨ ، الى انشاء مجلس دائم من وجهاء البلاد ، وكلهم رجعيون ، وغايتهم مراقبة الملك عن كثب وتقدير اعماله بمقياسهم الرجعي.

* * *

تقسم بلاد نجد وملحقاتها الى اربع مناطق ادارية يحكم كل منطقة امير يعاونه مجلس منتخب . وهذه اسماء المقاطعات : ١ً القصيم او النجد الشمالي ويشمل بلاد شمر والجوف . ٢ً العارض او النجد الجنوبي وعاصمته الرياض ، وهي المدينة التي يقيم فيها ابن سعود ، حين لا يكون في تنقلاته الكثيرة . ٣ً الاحسا على خليج فارس . ٤ً ايها او العسير الشمالي[1] ، على شاطئ البحر الاحمر .

وقد اعتنقت الاكثرية الساحقة من سكان نجد ، بالرغم او بالرضى ، مبادئ الوهابيين ، وهؤلاء يتبعون مذهب ابن حنبل ، ولا يرضون بكونه اضيق المذاهب السنية ، بل يضيقون فيه ايضاً ويبالغون في بعض نزعاته. وابعد الوهابيين عن التساهل جماعة تعرف « بالاخوان » ، كانت تؤلف جوالي او طوارئ عسكرية حربية في المقاطعات التي استولى عليها ابن سعود في اخريات حروبه ، فعاونه الاخوان وألفوا النواة القوية في جيوشه . الا ان تعصبهم الشديد بمعتقداتهم ، وتعصبهم البعيد عن العقل يعوقان الملك في الكثير من مراميه السياسية ؛ وهم يشجبون كل تجديد يقوم به ، واليهم يعود السعي في انشاء ذاك المجلس المراقب.

---

١) تكلمت الصحافة مؤخراً عن نجاح ابن سعود في بسط سلطته على العسير الجنوبي. على اننا لا نشير الى ذلك ، قبل ان تتحقق مبلغ هذه الروايات من الصحة.

ومن اجدر مقاطعات الدولة بالذكر مقاطعة الاحسا ، وهي بلاد البحرين القديمة ، لانها تمتاز على سائر المقاطعات بخصبها وعمرانها . فان فيها كثيراً من الواحات ، وبعض الينابيع والسبخات ، وهي البحيرات الوقتية . وان من ينابيعها ما هو غزير المياه يؤلف بركات ، اي بحيرات دائمة ، وهو امر وحيد من نوعه في بلاد العرب . اما سكان تلك المقاطعة فمن الوهابيين ، بينهم عدد من القرامطة يبلغ نحو ٦٠,٠٠٠ .

ونذكر ايضاً بلاد نجد الجنوبية ، وهي ما يدعوه مؤلفو العرب الاقدمون باليمامة . وقد كان من اشهر سكانها بنو تميم ، ولا يزالون فيها حتى اليوم . وفي النجد الشمالي ، او بلاد شمر ، ينزل بنو طي ، قبيلة حاتم المشهور ، فيقيمون في سلسلتين من الجبال متوازيتين مشهورتين في الآداب القديمة باسم جبلي طي ، وهما أجا وسلمى . وقد اصبح اكثر رجال هاتين القبيلتين ، تميم وطي ، من الحضريين في ايامنا هذه .

* * *

يجدر بنا ، وقد القينا هذه النظرة الاجمالية ، ان نسأل نفسنا ما هو مستقبل هذه الدولة الجديدة ؟ هل تكذب ابن خلدون القائل «ان العرب ابعد الامم عن سياسة الملك» وانه ليس بامكانهم ان يؤسسوا هيئة حكومية منظمة قابلة الحياة والدوام ؟ هذا ولا شك ان شخصية ابن سعود تكون بمعزل عما يتسرب الى تلك الدولة من الوهن والانحطاط ؛ لانه ، بما خص به من الذكاء والحزم ، يظهر مثالاً حياً لرجل الادارة الحقيقي . الا ان ما نسأل عنه هو : هل ينجح هذا الاداري الحازم في تمهيد السبل لتنظيم البدو ، وتقرير تقلقلهم الفطري ، وابدال التساهل بتعصب الاخوان ، وهو اعقل من ان يجاريهم فيه ؟

وان من العقبات التي يصادفها وجود القبائل القوية التي تتحمل نير سلطته بتذمر كقبيلتي مُطير وعُتيبة . ويفيدنا عبرةً ان نشير الى ان قائد الجيوش النجدية كان ، حتى سنة ١٩٢٨ ، فيصل الدويش امير مُطير وصهر شيخ عُتيبة ، وهاتان الصفتان كانتا تبسطان له اوسع نفوذ في الدولة الجديدة . ولم يكن يترك فرصة تمر الا ويدل على الملك بنفوذه . حتى عزله هذا ، فثار مع رجال

حزبه المديـدين ، وعاونه كثير من الاخوان . فشقّ الامر على ابن سعود ، ولزمته جهود سنـة كاملة ومعارك كثـيرة ، حتى تمكن من قمع تلك الثورة الخطرة . ومن الطبيعي ان العقوبات كانت شديدة ، فتركت آثارًا بليغة لا تنتظر الّا فرصة جديدة لتثور من مكامنها .

هذا في نجد . اما في الحجاز فالدولة الوهابية بغيضة الى جميع السكان . واهم ما يشكو منها البدو قساوتهـا في الاحكام ، حتى انهم ليلومون نظام الشرطة فيها الذي يجتهد في وضع حدّ للفوضى السائدة التي اعتادها البدو فصعب عليهم الخروج منها . ثم ان سكان مكة والمدينة لا يغفرون للوهّابيين ما اتوه من الفظائع ، في نظرهم ، بهدمهم الآثار التذكارية الاسلاميـة . وذلـك ان الاخوان يزعمون ان مـا يؤديه المسلمون من شعائر الاحترام والاكرام لـلآثار والامـاكن التي حفظت ذكرى مؤسس الاسلام والصحـابة ، ان هو الّا من دلائل الوثنية .

هذا شيء من الصعوبات التي يلاقيها ابن سعود ، وأينا من المفيد ذكرها ، كما ان من المفيد التشوّف الى المستقبل ، فنرى هل يتوصل الامير الاداري الحازم الى التغلّب على هـذه العقبات ، فينجح ، بما فطر عليه من الدهاء والدربة ، بتغيير الفطرة البدوية ، فيؤلّف القلوب ويسيّرها جميعاً في خدمة مثال اعلى واحد تتجه نحوه هذه الدولة الجديدة في قلب جزيرة العرب ؟